المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

نماذج من
رحمة النّبيّ ﷺ بالمخالفين

إعداد
الدّكتور / إسماعيل طاهر محمد عزّام

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد، المبعوث رحمةً للعالمين، الرّحمة المهداة، والسّراج المنير، أرسله الله تعالى ليخرج البشريّة من وحول الشّهوات إلى نور اليقين، وأمّا بعد:

فقد اخترنا نماذج من رحمة النّبي ﷺ بالمخالفين؛ ويراد بمفهوم المخالفين في بحثنا هذا، كل من خالف شرع الله، وحكمه فهو خائنٌ لله ولرسوله ﷺ، خارجٌ على العدل، الذي نزل هذا الشّرع لإقامته بين النّاس. ولمّا كانت مخالفة الحكم بشرع الله تفضي إلى الظلم والجور واختلال موازين الحق، استحق المخالفون الوصف بالكفر والظّلم والفسق. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]. والمخالفون لشرع الله وحكمه هم الفرق الباطنية من أهل النّفاق والكفر، والمنافقون المستغربون الذين فتنوا بما عليه الغرب الكافر في علومه، وحضارته، وثقافته. ولاعتبارات منهجية تناولنا رحمة النّبي ﷺ ببعض المخالفين، وهم. أ. أهل الكتاب. ب. الكفّار. ج. المنافقون.

المقدمة

المتأمّلُ في واقع الأمّة العربيّة والإسلاميّة، يجد أنّها تعاني جُملَةً من الاضطرابات السّياسية، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة؛ نتيجة غياب قيم التّسامح والفضيلة الخُلقية. ورغبةً منّا في استجلاء حقيقة هذا الواقع المرير، وكشف مُلابساته، ارتأينا أن ننجز مقاربةً علميةً نقف من خلالها على الأسباب الموضوعية لغياب الرحمة بين الأفراد، والمجتمعات المعاصرة. ومن هذا المنطلق تمّ تصميم البناء الهندسيّ للبحث في الخطوات العلمية والمنهجية الآتية:

أسباب اختيار الموضوع: ذاتية وعلمية

الذّاتية:

تعلق الباحث بمحبة النّبيّ ﷺ، ورغبته الصّادقة في الاقتداء بسنّته.

العلمية:

أ. الرّد المفحم على شبهات المستشرقين، واستجلاء حقيقة صورة النّبيّ ﷺ المشرقة المضيئة.

ب. تبيان معالم صورته الزّكية في رحاب تجسيد رحمته ﷺ

بالمخالفين، الذين أساؤوا إلى مقامه الشّريف من خلال الرّسومات المخزية إلى شخصه الكريم ﷺ.

إشكالية البحث:

يأتي هذا البحث ليجيب عن الأسئلة الآتية:

أ. ما هي دواعي السلوك الخاطئ المغلوط لمعنى الرّحمة في الإسلام، وتطبيقاته المنحرفة في الواقع؟.

ب. ما موقف الإسلام من الهجمة الإعلامية الشّرسة الهادفة إلى تشويه صورته النّاصعة؟.

ج. ما هي نظرة الإسلام للموافقين في العقيدة ممن ينسبون أنفسهم للنبي ﷺ من غلاة المسلمين – ويسيئون إليه من خلال فهمهم الخاطئ للكتاب والسّنة.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث ليحقّق الأهداف الآتية:

أ. بيان موقف الإسلام من صفة الرحمة.

ب. توضيح الصورة المشرقة للإسلام من خلال صفة الرحمة، التي يتصف بها النّبيّ ﷺ في العباد.

ت. إظهار عظيم رحمة النّبيّ ﷺ التي لم تقتصر على البشر؛ بل تعدت إلى غيرهم من المخلوقات.

ث. بيان أثر الرحمة في استقامة السلوك الإنسانيّ.

ج. إظهار أن السلوك الخاطئ من قبل الغلاة، والمتمثل في القسوة والشدة في غير موضعهما؛ إنّما هو فهم خاطئ لنصوص الشريعة

السمحة، ولا يمت إلى الإسلام بصلة.

ح. الرد على الهجمة الشرسة من قبل وسائل الإعلام، التي تعمل جاهدة على تشويه صورة الإسلام، وإظهاره بأنه دين الغلو والتطرف؛ مستغلين بعض الأعمال الفردية من قبل بعض الفرق الإسلامية المتطرفة الضّالة.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخيّ القائم على رصد الأحداث، وتحليلها، ومناقشتها، وتفسيرها، وسأطبّق ذلك على سيرة النّبيّ ﷺ رصدًا وتحليلًا ومناقشةً، وذلك باتباع الخطوات الآتية:

أ. استخراج الآيات القرآنية ذات العلاقة المباشرة في صفة الرحمة موضوع البحث، وبيان معناها بشكل مختصر من خلال بعض كتب التفسير.

ب. ذكر بعض ما صحّ من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على الرحمة، وتخريجها وعزوها إلى مصادرها الأصلية، فما كان منها في الصحيحين أو أحدهما اقتصرت عليه؛ وإلا فقد خرجتها من باقي الكتب الأربعة الأصول؛ وإذا لم يكن فيها أو في أحدها انتقلت إلى غيرها مما صحّ عنه ﷺ.

ت. استعراض بعض مواقفه وقصصه ﷺ، التي تجلّت فيها صفة الرّحمة، وتحليلها، ورصد الدروس، والعبر المستقاة منها.

خطة البحث:

المبحث الأول: رحمته بأهل الكتاب: ويتضمن المحاور الآتية:

المطلب الأول: تجنب ظلم أهل الكتاب، واحتقارهم وكراهية

تكليفهم بالأعمال الشّاقة.

المطلب الثّاني: حسن معاملة النّبيّ ﷺ لأهل الكتاب.

المطلب الثالث: دعوة أهل الكتاب للدين مُقدّم على قتالهم.

المطلب الرّابع: تسامحه مع أهل الكتاب في قضايا شخصية.

المبحث الثاني: رحمته بالكفّار: ويتضمن المحاور الآتية:

المطلب الأول: تلطّفه في الدّعاء للكفّار

المطلب الثّاني: حرمة قتل الكافر الآمن على دمه.

المطلب الثالث: وجوب صلة الأرحام ودعوتهم.

المطلب الرّابع: تعامله ﷺ ماليًا مع الكفار.

المبحث الثّالث: رحمته بالمنافقين: ويتضمن المحاور الآتية:

المطلب الأول: حكمته ﷺ في التعامل مع المنافقين،وحنكته في تجفيف فتنهم.

المطلب الثّاني: دعوته للمنافقين، واستغفاره لهم.

المبحث الرّابع: رحمته بالأسرى: ويتضمن المحاور الآتية:

المطلب الأول: عتق النّبيّ ﷺ للأسرى.

المطلب الثّاني: حسن معاملة النّبيّ ﷺ للأسرى.

المطلب الثّالث: نهي النّبيّ ﷺ أصحابه عن التّمثيل بالأسرى.

الخاتمة والتوصيات:

المبحث الأول
رحمته ﷺ بأهل الكتاب

للتّطبيق الحضاريّ لسماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين صورٌ مُشرّفة كثيرة، منها: عدم إكراههم على ترك دينهم، فيُترَكُون وما يدينون، ولا يُكرهون على الدخول في الإسلام بعد دعوتهم إليه بالحكمة والرحمة؛ ومنها: عدم إيذائهم، فلا يجوز لأحد من الناس أن يؤذيهم أو يضيّق عليهم، والإحسان إليهم والبرّ بهم، حيث ينعم غير المسلمين من أهل هذه البلاد بحسن الجوار، وشتى صور الإحسان والتسامح في المعاملة. ففي المدينة المنورة حيث تأسّس المجتمع الإسلاميّ الأول، وعاش في كنفه اليهود بعهدٍ مع المسلمين، فقد كان ﷺ غاية في الحلم معهم، والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد، وخانوا رسول الله ﷺ. أمّا من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم فلهم الضّمان النّبويّ. فقد ضمن ﷺ لمن عاش بين ظهرانيّ المسلمين بعهد، وبقي على عهده أن يحظى بمحاجّة النّبيّ ﷺ لمن ظلمه. والأحاديث الواردة في موضوع رحمته ﷺ بأهل الكتاب كثيرة ومتنوعة، والمقام لا يسمح للبسط فيها؛ ولكن قبل الوقوف على أبرزها لا بد من النظر في كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلاميّ. ولا شكّ أنّ قراءة أوّلِ وثيقة سياسية صدرت عن النّبيّ ﷺ، في بداية هجرته من مكة إلى المدينة تنصّ على معاهدة

أبرمها النّبيّ ﷺ بين المسلمين و يهود المدينة. فكانت البنود في مجملها وفق النّقاط الآتية[1]:

١. إنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا مَن ظَلَمَ وأَثم، فإنه لا يوتِغ -أي يُهلك- إلا نفسه وأهل بيته.

٢. وأنّ ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٣. وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٤. وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٥. وأنّ ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٦. وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٧. وأنّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا مَن ظلم وأثم، فإنه لا يوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

٨. وأنّ ليهود بني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البِرّ دون الإثم.

٩. وأنّ بطانة يهود كأنفسهم.

١٠. وأنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأنّ بينهم النصح والنصيحة، والبِرّ دون الإثم.

١١. وأنّ يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة.

(١) انظر: ابن هشام، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، السّيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، ج ٣، ص ٣٤، والصّلابي، علي محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ج ٥، ص ٦٠.

والنّاظر في بنود هذه الوثيقة لا يجد سوى المساواة بين طرفيّ المعاهدة، فمن ساواك بنفسه، لا يكون إلا رحيمًا. ومن خلال قراءةٍ واعيةٍ موضوعيةٍ لبنودها. يمكن استخلاص الملاحظات الآتية:

١. المساواة بين مختلف القبائل اليهودية والمسلمين؛ مع اعتناق كل طرف بدينه وعقيدته.

٢. المساواة بين الشّرائع الاجتماعية كلّها، دون تمييزٍ طبقيّ؛ شريطة عدم الطّغيان؛ فإنّه مُهلك لصاحبه، وأهل عشيرته.

٣. المساواة في النّفقة.

٤. البرّ والنّصح مقدمان على الإثم.

وقد عقد ﷺ معاهدةً أخرى مع وفد نصارى نجران من أهل اليمن، جاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما كتب محمد النّبيّ رسول الله لأهل نجران.

ولنجران وحاشيتها، جوار الله، وذمة محمد النّبيّ رسول الله، على أموالهم، وأنفسِهم، وملّتهم وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغيّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم رُبّيّة -أي ربا- ولا دمُ جاهلية، ولا يُحشرون -أي إلى الجنديّة- ولا يُعشرون - أي لا يؤخذ منهم عُشر أموالهم - ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل حقًا منهم فبينهم النّصَف -أي العدل- غير ظالمين ولا مظلومين"[1].

(١) انظر، البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج ٥، ص ٤٨٥، و الشامي، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ، تحقيق، مصطفى عبدالواحد - وآخرون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جمهورية مصر العربية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م، ج ٦، ص ٤٢٠.

يظهر جليًا من خلال هذه المعاهدة أنّها تؤسّس لدستور أخلاقيّ، وإنسانيّ، وعالميّ، يمكن حصر مواده وبنوده في النّقاط الآتية:

١. مجاورة المسلمين لأهل نجران.

٢. المحافظة على أموالهم، وأنفسهم على مختلف شرائحهم الاجتماعية.

٣. حماية رهبانهم وكهنتهم وعدم المساس بأمنهم.

٤. عدم الأخذ بالثّأر منهم كعادة الجاهليّين.

٥. إعفاؤهم من الضّريبة.

٦. توفير الأمن والسّلامة لهم.

٧. معاملتهم بالعدل والإنصاف.

المطلب الأول
تجنّب ظلم أهل الكتاب واحتقارهم وكراهية تكليفهم بالأعمال الشّاقة

حرّم الإسلام إيذاء أهل الذّمة، والتعدي عليهم بغير حق؛ فقد كان ﷺ يُوصى كثيرًا بأهل الذمة، والمستأمنين، وسائر المعاهدين، ويدعو إلى مراعاة حقوقهم، وإنصافهم والإحسان إليهم، وينهى عن إيذائهم.

فقال ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[1]. بل إنّه شدّد

(١) أبو داود، سليمان بن الأشعث السّجستاني، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي - بيروت، كتاب، الخراج والفيء والإمارة، باب، الذّمي يسلم في بعض السنة، أعليه جزية؟، حديث رقم:٣٠٥٤، ج ٣، ص، ١٣٦ عن صفوان بن سليم، قال الألباني رحمه الله حديث صحيح.

الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا».[1]

وظاهر من الحديثين الشّريفين احترام المعاهد وعدم ازدرائه، واحتقاره، وتكليفه ما لا يطيق؛ مراعاة لحرمته وقداسته وآدميّته. فَقاتِلُ المعاهد خصيمه النّبيّ ﷺ يوم القيامة. وروي عن عَمْرو بن شُعَيْب عن أبيه عن جَدّه قال رَسُولُ الله ﷺ: «المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَرُدّ مُشِدّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ»[2].

فالمساواة بين المسلمين في الدّماء، والأعـراض من مقاصد الهدي النّبوي،ولا يجوز قتل المؤمن بالكافر.

وتتجلّى قمّة الرّحمة معهم بما أورده العرياض بن سارية قال: «قام رسول الله ﷺ فقال: أيحسب أحدكم متكئا على أريكته، يظن أن الله لم يحرم شيئًا إلا ما في هذا القرآن ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم»[3]. فالنّاظر في أحاديث النّبيّ ﷺ يرى أنّ الأمر بالعدل وعدم الظّلم كان بين الناس جميعًا، دون النظر إلى ذواتهم أو أجناسهم أو دينهم

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة، الأولى ١٤٢٢هـ، كتاب الجهاد، باب، إثم من قتل معاهدًا من غير جرم، حديث رقم:٣١٦٦. عن ج ٤، ص ٩٩، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرو بن العاص ﷺ.

(٢) أبو داود، كتاب، الجهاد،باب، في السّرية ترد على أهل العسكر، حديث رقم: ٢٧٥٣، ج ٣، ص ٣٤، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال الألباني ﷺ حسن صحيح.

(٣) أبو داود، كتاب، الخراج والإمار والفيء، باب، تعشير أهل الذّمة إذا اختلفوا بالتجارات، حديث رقم: ٣٠٥٢، ج ٣، ص ١٣٥،، عن العرباض بن سارية ﷺ،، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط، صحيح لغيره، وهذا اسناد حسن من أجل حكيم بن عمير، وأشعث بن شعبة،فهما صدوقان حسنا الحديث.

أو حسبهم؛ فالكلّ سواسية، حتى لو كان صاحب الحق ظالمًا للمسلمين، فلابد من إعطائه حقّه. بل إنّ من عالميّة الرّحمة المحمّديّة احترام قداسة بيوت أهل الكتاب وحرمتها؛ وعدم أكل ثمار أهلها إلّا عن طيب خاطر.

المطلب الثّاني
حسن معاملة النّبيّ ﷺ لأهل الكتاب.

لقد جسّد النّبيّ ﷺ في نفوس الصحابة الكرام أصلًا عظيمًا وغايةً نبيلة في المعاملة الحسنة مع كل الخلق؛ فقال ﷺ: «إنّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

فها هو ﷺ يعود خادمه اليهوديّ؛ فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنّه كان غلام يهوديّ يخدم النّبيّ ﷺ، فمرض فأتاه النّبيّ ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده: فقال له أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النّبيّ ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذى أنقذه من النّار»[2].

ومن أسمى مظاهر رحمته النّبيلة أنّه كان يزور المرضى من اليهود ويتفقدهم، وكان لهذه الزّيارة والملاطفة عميق الأثر في إسلامهم.

وقد كان ﷺ يعاملهم في البيع، والشّراء، والأخذ، والعطاء. فعن عائشة

(١) أحمد، أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق، شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة، الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، حديث رقم، ٨٩٥٢ و ج ١٤، ص ٥١٣، عن ابي هريرة رضي الله عنه، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط، صحيح وهذا اسناد قوي ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة وهو قوي الحديث، والبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة، الأولى ١٣٤٤ هـ، كتاب، من تجوز شهادته ومن لا تجوز من الأحرار البالغين العاقلين المسلمين، باب، مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلفًا بها كان من أهل المروءة، التي هي شرط في قبول الشهادة،حديث رقم:٢١٣٠١، ج ١٠، ص ١٩١، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري، كتاب، الْجَنَائِزِ،بَابٌ، إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الْإِسْلَامُ، حديث رقم: ٦٢٠٣، ج ٨، ص ٤٥.

ﷺ قالت:» توفيّ النّبيّ ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ»[1].

وورد أنّ النّبيّ ﷺ استسقى فسقاه يهوديٌّ، فقال له ﷺ: «جمّلك الله، فما رؤي الشّيب في وجهه حتّى مات»[2].

فطلب السُّقيا من يهوديّ ليس حاجزًا في المعاملة الإنسانية، بل إنّ النّبيّ ﷺ أثنى على اليهودي، وشكر له حسن صنيعهِ.

ولعل من أجلّ علامات رحمته الواسعة أنّه ﷺ يقبل هدايا أهل الكتاب؛ فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر، حيث أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السّم؛ بل وعفا عنها[3].

ولما قدم وفد نجران –وهم من النّصارى – على النّبيّ ﷺ بالمدينة، دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، وقد حانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده ﷺ، فأراد الناس منعهم، فقال محمد ﷺ: (دعوهم)، فصلّوا إلى المشرق[4].

وقد علّمنا رسول الله ﷺ أنّ الجميع متساوون في الحقوق الإنسانية

(١) البخاري، كتاب، الجهاد، بَاب مَا قِيلَ فِي دِرْعِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمِيصِ فِي الْحَرْبِ، حديث رقم: ٢٩١٤، ج ٤، ص ٤١.

(٢) الشّامي، ج ١٠، ص ٢٠٨.

(٣) انظر الحديث عند أبي داود، كتاب، الديات، باب، فيمن سقا رجلًا سمًا، أو أطعمه فمات، أيقاد منه، حديث رقم: ٤٥١٢، ج ٤، ص ٢٩٤،، عن جابر بن عبدالله: «أن يهوديةً من أهل خيبر، سمّت شاة مَصليةً – مشوية – أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه. فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم. وأرسل إلى اليهودية فدعاها فقال: سممت هذه الشاة؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: أخبرتني هذه في يدي للذراع، قالت: نعم. قال: فما أردت إلى ذلك؟ قالت: قلت إن كان نبيًا فلن يضرّه، وإن لم يكن استرحنا منه. فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها»، قال الألباني رحمه الله: حديث ضعيف، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط، حديث جابر ليس بذاك المتصل لأنّ الزّهري لم يسمع من جابر شيئًا. ثمّ إنّه ليس من هذا الحديث أكر من أنّ اليهودية أهدتها لرسول الله ﷺ، فصارت ملكًا له، وصار أصحابه أضيافًا له، ولم تكن هي قدمتها إليهم وإليه، فالقود ساقط لما قدمنا من علة المباشرة وتقديمها على السبب.

(٤) انظر، ابن هشام، السّيرة النبوية، ج ٣، ص ١١٤.

البشريّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠].

أما التمايز فهو من عند الله عز وجل التقوى والإيمان وحسن المعشر والأخلاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، ولقد حرص النّبيّ ﷺ على تجسيد هذه المعاني من خلال وقوفه لجنازةٍ مرّت من أمامه، فقال الصحابة رضي الله عنهم: إنها جنازة يهودي، فقال الرحمة المهداة ﷺ: «أليست نفسًا»[1]. إنّ قراءة إنسانيّةً لهذا الحديث تقوم دليلًا حيًّا على مراعاة حرمة الميت واكرامه فلم يجد المصطفى ﷺ حرجًا في الوقوف لجنازة يهوديّ من منطلقاتٍ إنسانيّةٍ، دون تميزٍ لجنس الميت وعرقه وفصله. تلك هي الصّور الحقيقيّة لسماحته ﷺ مع غير المسلمين من أهل الذّمة. حيث عاملهم معاملةً راقية، تشهد على صفاء سريرته، ونقاء معدنه، إذ تعدّدت صور رحمته ﷺ في مجالات شتى.

المطلب الثالث
دعوة أهل الكتاب للدّين مُقدّمٌ على قتالهم

تتجلّى رحمته ﷺ مع أهل الكتاب حتى في حالة الحرب؛ فعن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ خيبر، فأتت اليهود، فشكوا أنّ الناس قد أسرعوا إلى حظائرهم فقال رسول الله ﷺ ألا لا تحلّ أموال المعاهدين إلا بحقها»[2]. فقد نهى النّبيّ ﷺ عن أخذ أموال

(١) انظر الحديث عند البخاري، كتاب، الجنائز، باب، القيام للجنازة، حديث رقم:٩٦١، ج ٢، ص ٦٦١، عن عمرو بن مرة عن ابن أبي ليلى: أن قيس بن سعد وسهل بن حنيف كانا بالقادسية، فمرت بهما جنازة فقاما فقيل لهما إنهما من الأرض فقالا: إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل: إنه يهودي، فقال: أليست نفسًا.

(٢) أحمد، أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق، شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة، الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، حديث رقم: ١٦٨١٦، ج ٢٨، ص١٦، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لاضطرابه، لكن له شاهد من حديث المقدام بن معدكرب برقم (١٧١٧٤) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ =

المعاهدين؛ صونًا وصيانةً لها، فأموال اليهود ليست ملكًا مشاعًا وَلَو في الحرب؛ وهذا يدلّل على أنّ أموال أهل الكتاب لها حرمتها وشرفها. وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ أنّه سمع النّبيّ ﷺ يقول يوم خيبر: «لأعطينّ الرّاية رجلًا يفتح الله على يديه. فقاموا يرجون لذلك أيّهم يُعطى، فغدوا وكلهم يرجو أن يُعطى، فقال: أين علي. فقيل: يشتكي عينيه، فأمر فَدُعِيَ له، فبصق في عينيه، فبرأ مكانه حتى كأنّه لم يكن به شيء، فقال: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فو الله لأن يهدي بك رجل واحد خير لك من حمر النّعم»[1].

فقد دلّ هذا الحديث على أنّ الدّعوة الحكيمة أزكى من المسارعة لقاتل أهل الكتاب، فاللّطف والملاينة في رحمتهم أنسب من قتالهم، لتعلق الدّعوة الرّشيدة باستدراجهم وإقناعهم.

المطلب الرّابع
تسامحه ﷺ مع أهل الكتاب في قضايا شخصيّة

لم يكن تسامح النّبيّ ﷺ مع أهل الأديان الأخرى على المستوى العام فقط؛ بل كان على المستوى الشّخصي أيضًا. فقد روى الصحابيّ جابر بن عبدالله ﷺ: «أنّ يهوديةً من أهل خيبر، سمّت شاة مَصليةً – مشوية – أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ الذراع فأكل منها، وأكل رهطٌ من أصحابه

= لَا يُوشكُ رَجُلٌ يَنْثني شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَته يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ أَلَا وَلَا لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهَدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُمْ.

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب، دعاء النبي ﷺ النّاس إلى الإسلام والنّبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، حديث رقم: ٢٩٤٢، ج ٤، ص ٤٧.

معه. فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم. وأرسل إلى اليهودية فدعاها فقال: سممتِ هذه الشاة؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: أخبرتني هذه في يدي للذّراع قالت: نعم. قال: فما أردتِ إلى ذلك؟ قالت: قلت إن كان نبيًّا فلن يَضرّه، وإن لم يكن استرحنا منه. فعفا عنها رسول الله ولم يعاقبها»[1].

لقد تسامى النّبيّ ﷺ برحمته الواسعة إلى فضاء المطلق فأنكر ذاته، ولم ينتقم لنفسه، على الرّغم من فظاعة جرم اليهوديّة التي حاولت تسميمه إذ تجاوز أفقه الشّخصيّ إلى رحاب عالمية الإسلام وإنسانيته.

(١) سبق تخريجه.

المبحث الثاني
رحمته بالكفّار

المطلب الأول
تلطّفه ﷺ في الدّعاء للكفّار

برغم أذى الكفّار له ﷺ إلا أنّه كان حريصًا على التّلطف في الدّعاء لهم لا عليهم، وهذا مصداقًا لقوله جلّ وعلا:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]. وتتّضح شفقة النّبيّ ﷺ على قومه، ومزيد صبره وحلمه بهم، كيف لا والله عز وجل يقول واصفًا إيّاه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت للنّبي ﷺ: «هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلَّا وأنا بقرن الثَّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثمَّ قال: يا محمَّد، فقال: ذلك فيما شئت، إن

شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النّبيّ ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا»[1].

ومما يشهد على صفاء رحمته ﷺ، ونقائها أنّه انفرد بالدّعاء لقومه بالصّلاح والهداية، ولم يدعُ عليهم بالهلاك، وهو خلق نبويّ قد انفرد به المصطفى ﷺ؛ رغبةً في صلاح أحوالهم واستقامتهم. والأصل في الدّعوة الإسلامية أنّها قائمة على التّعايش، والتّفاهم، والتّعاون بين الأمم؛ بل إنّها قائمة على دعوتهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد أمرنا النّبيّ ﷺ بمعاملة الآخر؛ ولو كان مخالفًا لنا في العقيدة بحسن الخلق وطيب المعشر، تجسيدًا لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة:٨]. أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، (أَنْ تَبَرُّوهُمْ) أي: تحسنوا إليهم (وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) أي: تعدلوا[2]، على سبيل التّلطف بهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة.

وتتأكد المعاملة الحسنة مع الأقارب غير المسلمين؛ إذ القرابة الأُسريّة وصلة الرّحم مع المخالف في العقيدة قد تصل إلى الوجوب كالمعاملة مع الوالدين. فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «قدمتُ عليَّ أمي وهي مشركة، فقلت: يا رسول الله إنّ أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأصلها قال: نعم صليها»[3].

لا شك أنّ صلة الأرحام واجبةٌ من منطلق الرّحمة النّبوية، ولا تقف العقيدة عائقًا في تمتين العلاقات الأُسرية، ما لم تكن صلة في معصية

(١) البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب، إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السّماء آمين فوافقت أحدهم الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم: ٣٢٣١،ج٤، ص ١١٥.
(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطّبعة الثّانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ج ٨، ص ٩٠.
(٣) البخاري، كتاب، الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب، الهديّة للمشركين، حديث رقم: ٣١٨٣،ج ٤، ص ١٠٣.

الخالق، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥ ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: «قيل: يا رسول الله! ادع على المشركين. قال: إنّي لم أبعث لعانا. وإنما بعثت رحمة»(١).

وعنه ﷺ قال: «قدم طفيل بن عمرو الدّوسيّ وأصحابه، على النّبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن دوسا عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، قال: اللهم اهد دوسًا وأتِ بهم»(٢).

ويروي جابر بن عبدالله ﷺ أنّهم قالوا: «يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم. فقال: اللهم اهد ثقيفا»(٣).

ومن أجمل صور رحمته ﷺ أنّه لم يدعُ على المشركين بالشّرّ، لأنّ دعوته رحمة للعالمين؛ وإصرار بعض صحابته على الدعاء على المشركين منافٍ لأخلاقه الشّريفة، برغم ضخامة عدوانهم، وشراسة أفعالهم.

وقد حذّر النّبيّ ﷺ من دُعاء المظلوم ولو كان كافرًا، فعن أبي عبدالله الأسدي قال سمعت أنسَ بن مالك ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «دعوة المظلوم وإن كان كافرا ليس دونها حجاب»(٤). فما بالك بدعوة المظلوم المسلم المؤمن؟.

(١) مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث رقم: ٢٥٩٩، ج ٤، ص ٢٠٠٦.

(٢) البخاري، كتاب، الجهاد والسير، باب، الدعاء للمشركين بالهدى لتأليفهم، حديث رقم: ٢٩٣٧ ج ٤، ص ٤٥.

(٣) الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق، أحمد محمد شاكر وآخرون، الجامع الصحيح سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب، المناقب، باب، في ثقيف وبني حنيفة، حديث رقم: ٣٩٤٢، ج ٥، ص ٧٢٩، قال الترمذي ﷺ: حديث حسن غريب.

(٤) أحمد، حديث رقم: ١٢٥٤٩، ج ٢٠، ص٢٢ قال الهيثمي: «فيه أبو عبدالله الأسدى، لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح». أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد تحقيق، حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م، ج١٠، ص١٥٢، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

إنّ سهام اللّيل لا تخطئ ولو كانت من كافر، لأنّ حرقة المظلوم تخترق الحجب، فيستجاب للمظلوم ولو بعد حين، فالدّعوة بغضّ النّظر عن عقيدة صاحبها مستجابةٌ، إذا استوفت شروط الدّعاء ونبعت من قلبٍ مكلومٍ مقهور.

المطلب الثّاني
حرمة قتل الكافر الآمن على دمه

ها هو ذا ﷺ يجير ما أجارت أم هانئ. فعن أبي مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب تقول: «ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه، فقال: من هذه. فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحبا بأم هانئ، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثماني ركعات، ملتحفًا في ثوب واحد، فلما انصرف، قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي، أنه قاتل رجلًا قد أجرته، فلان ابن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[1]. وعن عمرو بن الحمق رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما رجل أمن رجلًا على دمه ثم قتله فأنا من القاتل بريءٌ وإن كان المقتول كافرًا»[2].

فتوفير الأمان والسّلامة من تجليات رحمته ﷺ؛ ذلك أنّ توفير البيئة الآمنة تجسيدٌ لقيم الطّمأنينة، والاستقرار النّفسي، والإخلال

(١) البخاري، كتاب، الصلاة، باب، الصلاة في الثوب الواحد ملتحفًا به، حديث رقم: ٣٥٧، ج ١، ص ٨١.
(٢) ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، باب الجنايات، كتاب ذكر الزجر عن قتل المرء من أمنه على دمه، حديث رقم: ٥٩٨٢، ج ١٣، ص ٣٢٠، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط، إسناده حسن.

بمقتضيات البيئة المطمئنة هدرٌ لكرامة الإنسان وخدشٌ لوجه العفّة والأمان، فقد تبرأ النّبيّ ﷺ من القاتل الذي استؤمن على أمن الكافر، لأنّ قتله تجاوز لحرمة الأمانة وشرفها.

المطلب الثالث
وجوب صلة الأرحام ودعوتهم

لقد حرص الإسلام على احترام الآخرين بغض النظر عن دياناتهم وميولاتهم بالمطلق؛ تصديقًا لقوله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»[1]. فالحديث يشمل كل صاحب وكل جار حتى لو لم يكن مسلمًا. فكان تعامل النّبيّ ﷺ مع من لم يتبعوه بتسامح قلّ نظيره، فلم يكره أحدًا على الدخول في دين الله لا إكراه في الدين، كما أخبر الله جلّ وعلا في كتابه العزيز: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]. بل إنّ الله جلّ وعلا نهاه ﷺ عن إكراه الناس للدخول في دين الله، قال جلّ وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾ [المؤمنون:٩٩]. إلّا أنّه ﷺ ومن عظيم رحمته ونبله وشرفه كان حريصًا كل الحرص على دخول الناس كافّة في دين الله، وخاصّة أهل بيته.

فقد حرص ﷺ أشدّ الحرص على هداية عمّه أبي طالب حين حضرته الوفاة؛ إذ أراد منه أن ينطق بالشهادتين، وكان أشياخ الكفر عند رأسه يصدونه ويقولون: أترغب عن ملّة عبدالمطلب؟، و النّبيّ ﷺ يقول: يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجّ لك بها عند الله. وهم يكررون قولهم

(١) أحمد، حديث رقم ٦٥٦٦، ج ١١، ص ١٢٦، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال الشيخ شعيب الأرناؤوط، إسناده قوي على شرط مسلم، و ابن حبان، صحيح ابن حبان، كتاب، البر والإحسان، باب، ذكر البيان بأنّ خير الجيران عند الله من كان خيرًا لجاره في الدنيا، حديث رقم: ٥١٨، ج ٢، ص ٢٧٦.

عليه حتى مات ولم ينطق بها. فحزن ﷺ حزنًا شديدًا رحمة بعمه الذي آواه ونصره ورباه[1].

لا شك أنّ القرابة الأسرية محركة للعطف الإنسانيّ والرّحمة البشرية، فقد تألم النّبيّ ﷺ لوفاة عمّه دون أن يسلم، وهو الذي آزره وشدّ عضده في الدّعوة؛ فرأى النّبيّ ﷺ من منطلق رحمته أن يردّ جميل عمّه بالشّفاعة له يوم القيامة، إلا أنّ الإكراه النّفسيّ والضّغط القبليّ حال دون إسلامه.

المطلب الرّابع
تعامله ﷺ ماليًا مع الكفار

وفي باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، روي عن عبدالرحمن ابن أبي بكر رضي الله عنهما قال: «كنا مع النّبيّ ﷺ ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها فقال النّبيّ ﷺ بيعًا أم عطية أو قال: أم هبة؟ فقال: لا. بيع، فاشترى منه شاة»[2].

لقد امتدت رحمته الواسعة ﷺ إلى مجال المعاملات المالية والتجارية، فلم يرَ غضاضةً في التّعامل مع المشركين؛ بل امتدت رحمته إلى الاستعانة بعلومهم الدّنيوية؛ فلم يجد حرجًا في التّذرع بمرشد طريقٍ وهو من كفار

(١) انظر الحديث عند البخاري، كتاب، مناقب الأنصار، باب،قصة أبي طالب، حديث رقم: ٣٨٨٤، ج ٥، ص ٥١، عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]، وَنَزَلَتْ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

(٢) البخاري، كتاب، البيوع، باب، الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، حديث رقم: ٢٢١٦، ج ٣، ص ٨٠.

قريش؛ ذلك أنّ الإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم من غير المسلم ما ينفعه في جميع العلوم الدنيوية كعلم الكيمياء، والفيزياء، والفلك، والطب، والصناعة، والزراعة، والإدارة، وغيرها.

فعن عائشة ﵂ قالت: «اسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ هَادِيًا خِرِّيتًا وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ»[1].

وبذلك يتضح لنا من خلال رحمته ﷺ عظم هذا الدين مع غير المسلمين، فالرحمة رأس كُلّ فضيلة. وإن ديننا يأمرنا بالرحمة حتى مع أعدائنا؛ بل وينهانا عن الاعتداء عليهم أكثر ممّا اعتدوا به علينا. فبهذه الأخلاق والآداب والرحمة يُعامل المسلمون غيرَ المسلمين.

(١) المصدر السّابق، كتاب، الإجارة، باب، إذا استأجر أجيرًا ليعمل له بعد ثلاثة أيام أو بعد شهر أو بعد سنة، وهما على شرطهما الذي اشترطاه إذا جاء الأجل، حديث رقم: ٢٢٦٤، ج ٣، ص ٨٩.

المبحث الثّالث
رحمته بالمنافقين

المطلب الأول
حكمته ﷺ في التّعامل مع المنافقين
وحنكته في تجفيف فتنهم

يكفينا أن نذكر في هذا المجال قصّته ﷺ مع زعيم المنافقين عبدالله بن سلول.

ففي العودة من غزوة بني المصطلق كما يروي جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «كنّا مع النّبيّ ﷺ في غزاة فَكَسعَ رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال الأنصاريّ: يا للأنصار. وقال المهاجريّ: يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال: دعوها فإنّها منتنة، يقول جابر رضي الله عنه: فسمعها عبدالله بن أبيّ فقال قد فعلوها والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال: دعه لا يتحدث الناس أنّ محمدًا يقتل أصحابه»[1].

إنّ من أشرف غايات الرّحمة النّبوية أنّه حارب النّعرات القبلية،

(١) البخاري، كتاب، المغازي، باب، قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦]، حديث رقم: ٤٩٠٥، ج ٦، ص ١٥٤.

والطّائفية، ولم يسمح لأبيّ ابن أبي سلول أن يفرق بين المهاجرين والأنصار، وقد هم عمر بن الخطاب ﷺ بقتله، إلا أنّ النّبيّ ﷺ سنّ سنّةً حميدةً في التعامل مع المنافقين، من منطلق تشريف مقام النّبوية وحرصه على عدم قتل أصحابه.

المطلب الثّاني
دعوته للمنافقين واستغفاره لهم

كان لموت رأس النفاق آية من آيات رحمته ﷺ بهم، حيث أعطى رسول الله ﷺ رداءه لعبدالله بن أبيّ ابن سلول زعيم النفاق؛ ليكفّن فيه، وصلّى عليه؛ وأبعد من ذلك أنّه استغفر له؛ كما روي ذلك عن الصحابيّ عمر ﷺ: «لما توفّي عبدالله بن أبيّ ابن سلول جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه فأعطاه، ثمّ سأله أن يصلّي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلّي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ- فقال: يا رسول الله، أتصلّي عليه، وقد نهاك الله أن تصلّي عليه؛ فقال رسول الله ﷺ: إنّما خيرني الله. فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيده على سبعين، قال: إنّه منافق فصلّى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة:٨٤]»[1].

وأورد الفخر الرّازي: «أنّه لما كان عبدالله بن أبيّ ابن سلول مريضًا عاده رسول الله فطلب منه أن يصلّي عليه إذا مات ويقوم على قبره. ثم

(١) البخاري، كتاب، تفسير القرآن، باب ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٨٠]، حديث رقم: ١٣٦٦، ج ٢، ص ٩٧.

إنّه أرسل إلى الرسول ﷺ يطلب منه قميصه ليكفّن فيه، فأرسل إليه القميص الفوقاني فرده وطلب منه الذي يلي جسده ليكفّن فيه فقال عمر رضي الله عنه: لِمَ تعطي قميصك الرجس النّجس؟ فقال ﷺ إنّ قميصي لا يغني عنه من الله شيئًا فلعل الله يدخل به ألفًا في الإسلام، وكان المنافقون لا يفارقون عبدالله. فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم منهم يومئذ ألف، فلمّا مات جاءه ابنه يعرفه فقال ﷺ لابنه صلّ عليه وادفنه. فقال: إن لم تصلّ عليه يا رسول الله لم يصلّ عليه مسلم. فقام ﷺ ليصلّي عليه، فقام عمر فحال بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلّي عليه فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤] (١).

لقد بلغ النّبيّ ﷺ مبلغًا راقيًا في دعوته للمنافقين واستغفاره لهم؛ لدرجة أنّه ألبس ثوبه الشّريف لعبدالله بن أبي ابن سلول ليكفّن فيه، وصلّى عليه رحمةً به، وشفقةً؛ ومن ثمّ ورد نصّ قرآنيّ ينهاه عن الصلاة على المنافقين. إنّ الحكمة من رحمة النّبيّ ﷺ بالمنافقين لا يمكن أن تفهم من باب التّقرب إليهم، وإنّما من منطلق ترسيخ ثقافة الرّحمة وتثبيتها في نفوس المنافقين، ويشهد على ذلك إسلام ألفٍ من أتباع ابن سلول، لما رأوه من حادثة تكفينه له ﷺ بقميصه الشّريف الطّاهر. وبهذا الاعتبار أراد ﷺ لهم الخير؛ لكنّهم رفضوه، ورام بهم رحمة الله، لكنّه لا يملك إلا أن يستغفر لهم حتى جاء النهي عن ذلك؛ فتوقف ﷺ طاعة لله تعالى، ولو أذن له لاستمر يدعو لهم ويستغفر.

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، مفاتيح الغيب من القرآن الكريم، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م، ج ١٦، ص ١٢١.

المبحث الرّابع
رحمته بالأسرى

المطلب الأول
عتق النّبيّ ﷺ للأسرى

من أشرف صور الرّحمة رحمته ﷺ بأسرى بدر؛ فقد اختار ﷺ رأي أبي بكر بأن يعاملهم بالحسنى وأن يقبل منهم الفداء وأعرض عن رأي عمر الذي كان يرى قتلهم حتى يهابه المشركون. فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث طويل منه قوله: «... فلما كانوا يومئذ التقوا فهزم الله المشركين، فقُتل منهم سبعون رجلًا، وأُسر منهم سبعون رجلًا، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفّار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبوبكر، ولكنّي أرى أن تملّكني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتمكّن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم. قال: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء ثم إنّ القرآن نزل بعد ذلك مؤيدًا رأي عمر ومعاتبًا

النّبيّ ﷺ»[1]. دلّ الحديث على وجوب الشّورى في إدارة الأمور المشتركة بمقتضى الحكمة. فقد أخذ النّبيّ ﷺ برأي أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو رأيٌ في منتهى الحكمة والرّشاد، ومفاده أنّ الفدية تقويةً لصفوف المسلمين، وشدّ لظهرهم، وهداية لهم؛ بيد أنّ رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يضرب عنق المشركين، من منطلق الصّرامة والحزم، لأنّهم أئمة الكفر والشّرك، وبهذا الرأي نطق القرآن الكريم، معاتبًا النّبيّ ﷺ. امتثالًا لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨].

وفي العام السّادس من شهر ذي القعدة، عندما أقام النّبيّ ﷺ في الحديبية وقبل إبرام الصّلح مع مشركي قريش، حاول ثمانون رجلًا متسلحين قتل النّبيّ ﷺ؛ فقد ورد عن أنس رضي الله عنه: «أنّ ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه فأخذوا أخذًا فأعتقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۢهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾ [الفتح:٢٤]»[2].

كما أعطى رسول الله ﷺ كسوة ونفقة لسفانة بنت حاتم الطائي عندما وقعت أسيرة في أيدي المسلمين، بل حَملها حتى خرجت مع بعض أناس من قومها[3].

ولما وقع ثُمامة بن أَثال سيد بني حنيفة أسيرًا؛ ربطه الصّحابة في

(١) أحمد، حديث رقم: ٢٢١، ج ١، ص ٣٤٥ - ٣٤٦، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط، إسناده حسن، رجاله رجال الصّحيح.

(٢) الترمذي، كتاب، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الفتح، حديث رقم: ٣٢٦٤، ج ٥، ص ٣٨٦، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: أبا نعيم، أحمد بن عبدالله أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، تحقيق، عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ج ٦، ص ٣٣٦٢.

سارية بالمسجد النبوي، ولكنّ النّبيّ ﷺ أطلقه فأسلم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:» بعث النّبيّ ﷺ خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النّبيّ ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة. فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل منه ما شئت. فترك حتى كان الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة. فقال: ما قلت لك، إن تُنعم تُنعم على شاكر فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة فقال: عندي ما قلت لك فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أنّ لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب دين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النّبيّ ﷺ»[1].

ولعلّ في معاملة النّبيّ ﷺ لثمامة ما يزكّي مسلكه النّبوي الشّريف في التعامل مع الأسرى؛ إذ أطلق سراحه ولم يصبه بأذى، فأثّر ذلك في نفسيته فأسلم، وتغيرت نظرته إلى النّبيّ ﷺ بعد أن امتلأ قلبه بالإيمان، فأزالت رحمته ﷺ عن ثمامة غشاوة الشّرك، وألبسته ثوب المحبة والسّكينة، فغدا النّبيّ ﷺ من أحب النّاس إلى قلبه.

ولا ننسَ كلمته الشهيرة ﷺ: يوم فتح مكة «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[2].

(١) البخاري، كتاب، المغازي، باب، وفد بني حنيفة وحديث ثمالة بن أثال، حديث رقم: ٤٣٧٢، ج ٥، ص ١٧٠.
(٢) البيهقي، السنن الكبرى، كتاب، جماع أبواب السير، باب، فتح مكة حرسها الله تعالى، حديث رقم: =

فعتق النّبيّ ﷺ للأسرى تجسيدٌ لمقام الرّحمة المحمدية، وترسيخٌ لمبدأ حسن المعاملة في الإسلام.

المطلب الثّاني
حسن معاملة النّبيّ ﷺ للأسرى

كان النّبيّ ﷺ يوصي أصحابه بالأسرى عمومًا، وها هو أحد الأسرى يحدثنا عن عظيم امتثال الصحابة ﷺ لهذه الوصية، والحق ما شهدت به الأعداء. يقول أبو عزيز بن عمير وهو أحد الأسرى: «كنت في نفر من الأنصار وقد قدموا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا».(١)

من الشهادات التّاريخيّة الخالدة لأسرى بدر، ما ذكره الأسير أبو عزيز بن عمير من حسن معاشرة الأنصار له، وتفضيلهم له، من خلال تقديم غذائهم، وعشائهم، واكتفائهم بالتمر، امتثالاً لوصية النّبيّ ﷺ.

ولعل من أنبل صور رحمته ﷺ بأسرى بني قريظة، أنّه أشفق عليهم

= ١٨٧٣٩، ج ٩، ص ١١٨، عن الْقَاسِم بْن سَلاَّم بْن مِسْكِين عَنْ أَبِيه قَالَ: ثُمَّ أَتَى الْكَعْبَةَ فَأَخَذَ بِعِضَادَتَي الْبَاب فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ. قَالُوا: نَقُولُ ابْنُ أَخٍ وَابْنُ عَمٍّ حَلِيم رَحِيم، قَالَ وَقَالُوا ذَلِكَ ثَلاَثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. قَالَ فَخَرَجُوا كَأَنَّمَا نُشِرُوا مِنَ الْقُبُورِ فَدَخَلُوا فِى الإِسْلاَمِ أَخْبَرَنَاهُ أَبُو بَكْر بْنُ الْمُؤَمَّل أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيد الرَّازِي حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَيُّوبَ أَخْبَرَنَا الْقَاسِمُ بْنُ سَلاَّم فَذَكَرَهُ. وَفِيمَا حَكَى الشَّافِعِيُّ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فِى هَذِه الْقِصَّة أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا فِى الْمَسْجِدِ: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ قَالُوا: خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيم. قَالَ: اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»، قلت: وَهَذا الإسناد رجاله ثقات.

(١) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق، حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣م، كتاب، مسند من يعرف بالكنى، باب، من يكنى أبو عزيز بن عمير بن هشام أخو مصعب بن عمير له حديث في غزوة بدر في ذكر الأسرى، حديث رقم: ٩٧٧، ج ٢٢، ص ٣٩٣. وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وحسنه الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد تحقيق، حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤، ج ٦، ص٨٦، برقم (١٠٠٠٧).

من حرّ الهجير على الرّغم من عظم خبثهم ومكرهم، إلا أنّه إكرامًا لهم، ورأفة بهم أمر بنقلهم من حرارة البيئة القاتلة إلى بيئة باردة؛ مراعاة لحقوق الإنسان وآدمية البشر؛ وفي هذا السّياق قال لأصحابه: «لا تجمعوا عليهم حرَّ هذا اليوم وحرَّ السلاح، قيلوهم حتى يبردوا»[1].

المطلب الثّالث
نهي النّبيّ ﷺ أصحابه عدم التّمثيل بالأسرى

لقد كان رحيمًا ﷺ، حتى بمن كان يناصبه العداء بالسيف واللسان معا؛ فها هو سهيل بن عمرو رضي الله عنه وقد كان مشركًا يوم بدر؛ إذ وقع أسيرًا، وكان خطيبًا من خطباء المشركين يحرض الناس على النّبيّ ﷺ، ويتكلم فيه بسوء قال عمر: يا رسول الله انزع ثنيّته يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدا، فقال رسول الله ﷺ لا أمثل فيمثل الله بي، وإن كنت نبيًا ولعله يقوم مقامًا لا تكرهه»[2].

(١) الزّحيلي، وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر، ٢٠١٢ م، ص ٤١٤.

(٢) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، المُصنّف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، حديث رقم ٣٦٧٣٩، ج، ٧، ص ٣٦٥، قال الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي، تحقيق، محمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، باب التمتع، ج٣، ص ١٢٠، حديث مرسل، وأخرجه الحاكم، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق، مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت،الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م، حديث رقم: ٥٢٢٨، ج٣، ص ٣١٨،، حَدَّثني عَلِيُّ بْنُ عيسَى، ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ثنا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، ثنا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَنْزِعْ ثَنِيَّتَيْ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو فَلَا يَقُومُ خَطِيبًا فِي قَوْمِهِ أَبَدًا، فَقَالَ: «دَعْهُ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسُرَّكَ يَوْمًا» قَالَ سُفْيَانُ: فَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ نَفَرَ أَهْلُ مكة فَقَامَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: مَنْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَهَهُ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَاللَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، سكت عنه الذَّهبي في التلخيص، ٥٢٢٨، وصحّحه الحاكم. انظر، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق، محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، حديث رقم: ٣٧٨٩٤، ج ١٤، ص ٣٨٧، حديث عَبْد الرَّحِيم، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَطَاءٍ. انظر: كتاب أبي نعيم، معرفة الصحابة، ج ٣، ص ١٣٢٤.

إنّ رحمة النّبيّ ﷺ بالأسرى منعته من التّمثيل بهم؛ فقد كان سهيل بن عمرو من أشد خطباء المشركين ايذاءً للنّبيّ ﷺ إلا أنّ رأفته به، والشّفقة عليه قد تحوّل لسانه الذّرب السّليط إلى منطق البيان الفصيح الذي يذود عن الأمة الإسلامية. فالتمثيل بالأسرى هدرٌ لكرامتهم وسلبٌ لآدميتهم. وحريّ ببعض الفرق والطوائف الضّالة المنحرفة في عصرنا أن تقتدي بالرّحمة المحمدية في التّعامل مع الأسرى من منطلقات شرعية إنسانية بمعزل عن التّمثل والتّشهير، الذي ينافي قداسة المسلم وحرمته ونبله وشرفه.

الخاتمة

إنّ قراءةً موضوعيّةً لموضوع الرّحمة في الإسلام تبين بجلاءٍ أنّ الهدي النّبويّ لامس عمق الرّأفة الإنسانيّة وجوهرها وحقيقتها. ولعلّ من تجلّيات هذه الملامسة المستفيضة، معاملته لمختلف الشّرائح البشرية، واجتهاده في تجسيد قيم الفضيلة الخُلقية، والإنسانية من منظور الرحمة. وإجمالاً يمكن تدوين النّتائج الآتية:

١. تعدّدت معالجة النّبيّ ﷺ لموضوع الرّحمة بتعدد مظاهرها وتجلّياتها.

٢. ضرورة توسيع النّظر في استخراج الأحاديث الصّحيحة التي تضمنت موقف النّبيّ ﷺ من رحمته بالمخالفين.

٣. ترسيخ قيم الرّحمة، وتوطينها، وتجسيدها في واقع الأمم والشّعوب.

٤. مارس النّبيّ ﷺ مبادئ الرّحمة وطبّقها تطبيقًا عمليًا في واقع المخالفين وغيرهم.

٥. مسلك الرّحمة النّبويّة مسلك حيويّ فاعل ومؤثّر، وتتجلى حيويته في إقناع المخالفين واستمالتهم.

التّوصيات:

تؤكّد المقاربة العلميّة الموجزة في موضوع رحمة المصطفى ﷺ بأمّته وغيرهم من المخالفين على جملة من التوصيات، التي نوجزها في النقاط الآتية:

١. دراسة الأحاديث النّبوية الصحيحة ذات الصلة بموضوع الرّحمة دراسة شاملة لاستخلاص مبادئ الرّحمة وضوابطها وآلياتها.

٢. ضرورة تفعيل الأحاديث الواردة في باب الرّحمة المحمدية،وتجسيدها محليًا وإقليميًا وعالميًا.

٣. استثمار مبادئ الرّحمة المحمدية يفضي إلى تجفيف منابع التطرف والغلو والإرهاب.

٤. الاقتداء بالسّنة النّبوية في تعامله مع الأسرى والمخالفين يقدّم نموذجا عالميًا يُحتذى في محاصرة سوء فهم بعض الفرق الضالة والمنحرفة في معاملتهم للأسرى معاملة غير إنسانيّة بمعزل عن الكتاب والسّنة.

٥. رحمته ﷺ بالمخالفين في المعاملات التّجارية، والاقتصادية، والمالية نموذجٌ راقٍ يجسد فلسفة التّسامح في أرقى أشكالها.

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم، مصحف المدينة النبويّة للنّشر الحاسوبيّ.
٢. أحمد، أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق، شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطّبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٣. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجامع المسند الصّحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٤. البيهقيّ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقيّ، دلائل النبوة، تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٥. البيهقيّ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطّبعة، الأولى ١٣٤٤هـ.
٦. البيهقيّ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ، شعب الإيمان، تحقيق، محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت. (د.ت).
٧. التّرمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى التّرمذي السلمي، تحقيق، أحمد محمد شاكر وآخرون، الجامع الصّحيح سنن التّرمذي، دار إحياء التراث العربي - بيروت. (د.ت).
٨. الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي،نصب الراية لأحاديث الهداية، تحقيق، محمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر. (د.ت).

٩. الحاكم، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق، مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠م.
١٠. أبو داود،سليمان بن الأشعث السّجستانيّ، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي - بيروت. (د.ت).
١١. الرّازي، فخر الدّين محمد بن عمر التّميمي الرّازي، مفاتيح الغيب من القرآن الكريم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطّبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
١٢. الشّامي، محمد بن يوسف الصالحي الشّامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ، تحقيق، مصطفى عبدالواحد وآخرون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر العربية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٣. الصّلابي، علي محمد الصّلابي، السّيرة النّبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
١٤. الطّبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق، حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
١٥. الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد تحقق، حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤.
١٦. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ الدمشقيّ، تفسير القرآن العظيم، تحقق، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطّبعة الثّانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٧. أبو نعيم، أحمد بن عبدالله أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، تحقيق، عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٨. مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النّيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق، محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت. (د.ت).
١٩. النّسائي، أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النّسائي، المجتبى من السّنن، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢٠. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، المُصنّف في الأحاديث والآثار، تحقيق، كمال الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى،١٤٠٩هـ.
٢١. ابن هشام، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، السّيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت. (د.ت).
٢٢. وهبة الزّحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دار الفكر - دمشق، ٢٠١٢م.